الرضم في شمالي العراق

Les Constructions Mégalithipues au N. de la Mésopotamie.

مقدمة

في جبال الكرد في الجهة الشرقية الشمالية من العراق يلقى السائح من حين الى حين مناظر طبيعية خلابة تأخذ بمجامع القلوب . فهناك تتكلل رؤوس الجبال الشامخة بالثلوج شتاء وتبقى آثار الثلوج الى اواسط الصيف . وهناك في الجبال البعيدة عن البليدات والقرى ترى الجبال مكسوة اشجار العفص والبلوط واشجار الفواكه والاثمار التي غرستها يد القدرة من زعرور وكمثرى وجوز ولوز وبطم وسماق وغيرها واشجار اخر غير مثمرة تصلح للنجارة والوقود قد غلات مجاميع من الاعشاب والازهار مختلفاً الوانها . وهناك اودية ومنحدرات تنساب فيها المياه صافية كاللجين ، وتكون احياناً شلالات صغيرة لطيفة يطرب خريرها . اضف الى ذلك انواعاً من الطيور . كل تلك المناظر البديعة التي لايختفي بعضها من عين المسافر إلا ويظهر له غيرها تجعله لايمل السفر في الربيع واوائل الصيف ولا يحس بالتعب فيلازم طريقه جذلا مستنشقاً هواءاً صافياً لا بل عبيراً منعشاً .

ولكن ما منحته الطبيعة هذه البقعة المباركة لايتناسب معه ما قامت به يد البشر من العمران . فليس هناك من طرق معبدة إلا في اتجاهات معينة والى مدى محدود . وليس هناك من مدن حديثة وقرى انيقة ومنازل جمعت وسائل الراحة والرفاهية . بل جل ما هناك بليدات من الطراز القديم وقرى حقيرة واكواخ بائسة .

على ان السائح الباحث يجد في كثير من المواقع آثار مهمة تاريخية ، لا بل آثار ما قبل التاريخ . يجد هنا وهناك كثيراً من خرائب القلاع وغرفاً ومساكن وصهاريج منقورة في الصخر ، وبعض آثار الاشوريين والفرس وغيرهم واخرى اقرب عهداً . وهذه الآثار كثيرة لاتقع تحت حصر ، والبحث عنها يستغرق زماناً طويلا ويستلزم تأليف مجلدات عدة .

موضوع البحث

غير اني اقصد في هذه المجالة ذكر آثار عادية عجيبة صادفتها في بعض اسفاري ، وهي عبارة عن ابنية منفردة اقيمت في سفوح بعض الجبال لم يستعمل

فيها شيء من مواد البناء سوى صخور عظيمة لا يكفي لرفع الواحدة منها عن الارض اقل من عشرة رجال شداد او اكثر . وقد احكم رصفها وتطبيق بعضها على بعض بحيث لا تتجاوز الواحدة الاخرى خارج البناء ولا داخله. ولم يعط للصخور التي فيها شكل هندسي ، بل تركت كل صخرة على حالها بعد حذف ما يزيد عن المطلوب منها . ولكن جعل القسم الذي اقل ثخناً من الصخرة يقابله القسم الاثخن من التي تحتها والقسم المحدب من الصخرة الواحدة يلاقيه القسم المقعر من الاخرى. وقد حبكت هذه الصخور بحيث يؤلف المجموع جدراناً اربعة تحيط بفضاء على شكل غرفة كبيرة مربعة مستطيلة . ولا بد انه كان لهذه الغرف ابواب ضيقة وسقوف من خشب واغصان الشجر فوقها تراب كما هو الحال في بريازة مساكن الكرد الحالية . وقد سقط بعض الصخور من اعالي الجدران الى داخل الغرفة وخارجها . وذلك اما من عمل الاعداء او عبث العابثين او من تأثير الزلازل العظيمة ولا اعلم الغاية من هذه الابنية العجيبة . هل كانت مسكناً للرؤساء الاقوياء الجبابرة أم محلا للاصنام أو مذبحاً لتقديم الاضحية للآلهة

تسمي الكرد هذه العاديات (دهر كافرة) بكسرات ثلاث في دهر وبكسر الفاء في كافرة ومعناه دير الكافر او حصن الكافر. وتسميه نصارى قرية (برسقة) Bercivé او برسيبا Bersiba [اي بئر السبع بلغة عوام السريانيين] الواقعة شرقي زاخو واهل شرانش نصارى في شماليها بـ (قصر سطانا) اي قصر الشيطان. ولا يعرفون عنها شيئاً مطلقاً غير انهم يعتقدون انها قديمة جداً جداً .

رأيت واحداً من هذه الابنية في الشمال الغربي من قرية برسقه يبعد عنها نحو كيلو مترين أو ثلاثة . وآخر في سفح رابية مرتفعة في الجهة الشمالية من قرية (شرانش نصارى) « لانهما قريتان غير بعيدة احداهما عن الاخرى . يسكن السفلى منهما كرد وتسمى « شرانش اسلام » والاخرى اعلى وهي « شرانش نصارى » هذه » . ورأيت اثنين منها : الواحد قرب الآخر في سفح جبيل في شرقي (مارسيس) . وهي قرية في واد بين جبال شاهقة تقع شمالي شرانش وكل هذه القرى داخلة في حدود العراق .

ان وقوع هذه الابنية في سفوح الجبال خصيصاً تدل على انهم كانوا يعمدون

الى صخور السفح فيزلزلونها أي فيشذبون منها الاطراف الناتئة والزائدة عن المقدار المطلوب ويقلبونها على الارض الى اسفل حتى اذا بلغوا بها المكان المطلوب وضعوه عليه واتوا بالثانية والثالثة الخ . حتى اذا ارتفع بهم البناء ردماً جعلوا حوله وداخله تراباً كي تسهل عليهم درجة صخور اخرى ووضعها في المكان المطلوب . وهكذا يضعون التراب اطراف البناء كلما ارتفع حتى ينتهوا من عملهم . ثم يزيلون التراب فيبرز البناء .

لابد من القول ان العرب عرفوا هذه الابنية او شيئاً من قبيلها . فقد ورد في مادة رضم في تاج العروس ما نصه : « والرضم بالفتح ويحرك وككتاب واقتصر الجوهري على الاولى والاخيرة صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض في الابنية . الواحدة رضمة » . وجاء فيه : « الرضيم والمرضوم البناء بالصخر » وفيه : « ذات الرضم من نواحي وادي القرى وتيماء . وذو الرضم موضع حجازي » وفيه : « رضم عليه رضماً : وضع الحجارة بعضها فوق بعض ورضم المتاع فارتضم مثل نضده فانتضد » . ويقرب من الرضام لفظاً ومعنى الركام . جاء في القرآن الكريم (ثم يجعله ركاماً) يعني السحاب اي يجمع بعضه فوق بعض . ويقرب منهما لفظ الرخام اي المرمر لانهم يقدون منه قطعاً يجعلون بعضها فوق بعض .

ان ما تسميه الافرنج بالابنية الدرويدية Monumemts Druidiques نسبة الى الدرويد وهو كاهن القاطنين Celtes قبل المسيحية في غربي اوروبا والتي منها ماهو على شكل خوان عظيم مؤلف من صخرة منبسطة قائمة على صخرتين او اربع وتسمى بال (دلمن Dolmen) ومنها ماهو عبارة عن صخور ركزت عمودياً وصفت بشكل محيط دائرة . اقول ان الابنية الدرويدية وان كانت من الاعمال الرضامية ايضاً فهي بسيطة نسبة الى هذه الرضم (قصور الشيطان) .

لابد ان الرضم لاتقتصر على ما ذكرت ولابد ان منها ماهو في سائر انحاء كردستان داخل حدود العراق وخارجه وفي اراض جبلية اخرى في سائر انحاء آسيا واوربا وغيرهما . ولا بد ان علماء الافرنج بحثوا عنها . ولكني لم اطلع على ما كتبوه عنها ولا اعلم بماذا اسموها . فارجو ممن له اطلاع ان يتحفنا بمعلومات اوفى واتم عنها واحث السياح ومحبي البحث على مشاهدتها .

الدكتور داود الجلبي